مخـاض الوهم

كنت في طريق عودتي من عيادة الطبيب النسائي .. كنت أطير من الفرح .. قدماي تسيران أو تطيران لم أعرف .. كنت أود أن أصرخ بأعلى صوتي و أمام جميع من أصادفهم في طريقي « إني حامل » ... بعد أربع سنوات من الزواج و العلاج و الحزن و الأمل و الشوق .. إن في أحشائي جنينا انتظرته و زوجي أعواماً طويلة .. إني حامل .. ما خاب أملنا .. أخيراً سنصبح أبوين .. زوجي هو الآخر فرح فرحاً لا يوصف عندما كلمته من عيادة الطبيب لأؤكد له الفرحة التي أكدها لي الطبيب .

اصطدمت قدمي بحجر و كدت أتعثر.. فاستعذت بالله و دون شعور مني وضعت يدي على بطني و كأنني أتحسس الجنين الذي لم يتحرك بعد لأطمئن أنه لم يصب بأذى .. قلت : خير إن شاء الله .. و تابعت المسير .

صديقة لي صادفتها في الطريق سرقت فرحتي يومها .. سلمت عليها بلهفة و في فمي فرح قلبي أردت أن أزفه إليها حين رأيت على وجهها حزن الدنيا كلها .. فابتلعتُ فرحي لأسألها و أسمع خبرا جعل الفرح يغوص و يغوص في أعماقي لأقاسم صديقتي و كل أصدقائي حزنا على صديقة لنا كنا ننتظر خبر وضعها لمولودها فإذا بنا نسمع خبر وفاتها أثناء الوضع .. صدمة حقيقية أودت بأفراحنا جميعا .. فالفرح يؤجل و أما الحزن فلا .

أيام كثيرة مرت قبل أن أستطيع تمالك نفسي و الذهاب إلى زوجها و أهلها لمواساتهم .. مع أن الواجب يتحتم عليَّ فعل ذلك إلا أن زوجي كان يقوم بواجبي و قد منعني الجميع خوفا على الجنين الذي طالما انتظرناه مرددين باستمرار « الحي أبقى من .. الميت » .

ماتت .. رحلت .. و يكبر الرحيل في قلبي فأحسني بعيدة عن الدنيا زاهدة فيها .. هكذا ساعات أو لحظات تفصل ين إنسان حياً أو ميتاً .. قبل أيام من وفاتها ذهبت لزيارتها و أخبرتها بأنني ربما سألحق بها إلى ألام الولادة التي كانت تخاف منها ففرحت لي كثيرا و صارت تحدثني عن كل الأشياء الطبيعية التي تمر بها الحامل .. لكنها رحلت .. و يعود رحيلها ليمزق سكينتي .

يوم ذهبت إلى بيتها لأعزي زوجها و أهلها .. تمالكت أعصابي تماما .. دخلت فرأيت صورتها تتصدر الغرفة .. كانت تبتسم .. ابتسامتها الطبيعية المعتادة حتى لتخالها تكلمك و تهفو لاستقبالك بكلماتها الحلوة .. لم أحس بالموجودين لم أنبس ببنت شفة .. كنت أستمع إليها .. ليس في أذني إلا صوتها .. حتى خيل إليَّ أنني سمعتها تقول لي أن في بطني بنتا و أنها قد أعطتها عمرها و تمنت عليَّ أن أسميها باسمها .
و تملكني هذا الإحساس .. صرت كلما خلدت إلى النوم أراها تحدثني و كلما استيقظت أراها أمامي .. كلما تحرك جنيني أقول هي هنا في داخلي .. كنت أحبها جداً و هي كذلك لهذا استقرت معي و في دمي .

كنت أتساءل لماذا هي بين كل النساء تموت أثناء الولادة .. لماذا هي و ليس أنا أيضا .. ما الذي يجعلها تختلف عني .. و تكبر الأوهام في داخلي .. و يكبر القلق في قلبي .. طفلي أريده بكل ما أملك من إرادة و حب .. أريد أن أعيش له و أربيه .. هل سأستطيع ذلك .. أم أن نصيبي سيكون مثلها .. تركت طفلها منذ اللحظة الأولى .. لم تتمتع بتربيته حتى لم تره .

إيماني بالله كبير و أعرف أن لكل إنسان قدراً و ساعة يرحل فيها لكن إحساسي هذا يستعبدني و يؤرق أيامي و ليالي ... كنت كلما ذهبت إلى الطبيب و أخبرني أن كل شيء طبيعي .. أهزأ من كلامه في فرارة نفسي .. هي أيضا كان يقول لها ذلك .. و كلما اقتربت أيام الولادة أحس أنها هي الأيام الباقية لي في هذه الحياة .

كلما رأيت زوجها و قرأت حزنه العميق و قلقه على ولده الذي ينشأ دون أم .. كلما نظرت إلى الطفل البريء الذي كتب له البعد عن أعز مخلوقة أرتعد و أتصور طفلي مكانه و ترتسم في مخيلتي صورة زوجي و الحزن ينهش قلبه .. وساوس شيطانية تغزو أفكاري و أنا مستسلمة لها لا أستطيع إبعادها .. كلما نجحت في ذلك تعود مسرعة لتنهش فرحتي .

و لم أستطع يوما أن أتحدث بذلك حتى لزوجي و أمي .. كنت وحيدة .. غارقة في خوف مرعب ..

في الأسبوع الأخير السابق لولادتي .. رتبت المنزل على أنني راحلة .. ثياب الطفل .. أغراضه .. مستلزماته .. حاجات زوجي .. كل شيء مرتب و كأنني راحلة و لن أعود ... كابوس الولادة يلاحقني .

و أخيراً حانت الساعة ... !!! كلما بدأت آلام المخاض كان خوفي يبعدها .. صورة صديقتي مرتسمة في خيالي لا تفارقني .. أهتف إليها من أعماق نفسي .. أرجوك ابتعدي .. أريد أن أعيش لطفلي .. و أحسها تمسك بيدي لتقودني إلى الغيب .. ضربات قلبي تتسارع .. و يبتعد المخاض .. ابتلعه .. لا أريده أن يبدأ .. حتى بدأت حالتي تسوء و الطبيب حائر في أمره مني .. اضطر معها إلى إجراء عملية قيصرية

عندما وضعوني على عربة المستشفى انقلي إلى غرفة العمليات أمسكت يد زوجي .. أردت أن أودعه .. أن أحدثه عما سيجري لي .. أردت أن أقول له لا تنتظرني .. اهتم بابنتي و سمها باسم صديقتي .. لكني كنت مستسلمة .. مسلوبة الحس .. فقد ضغطت على يده و قرأت قلقا كبيرا في عينيه .

نظرت إلى أمي فإذا عيناها مليئتان بالدموع تحاول التماسك بغير فائدة .. ضغطت على يدي تشجعني و أنا مستسلمة .. أغط في بحر من الأوهام كاد يودي بحياتي .. لم أشعر بالطبيب يعطيني المخدر .

و رحلت البارحة .. عندما أفقت لم أصدق نفسي .. فتحت عيني .. أغمضتهما .. و كأني طفل يولد من جديد .. شعرت أن ذاكرتي تأتي بالتدريج .. أنا حية .. لم أمت .. فتحتهما مجدداً .. إني أتنفس .. أستطيع فتح عيني .. ها هي أمي أمامي .. نعم عرفتها .. أنا أبتسم .. تذكرت .. هكذا يبتسمون .. و الابتسامة تعني الفرح أنا فرحة .. لم أرحل .. أنا هنا لأكمل مشوار حياتي .

أغمضت عيني مجددا لكني رحلت هذه المرة في فرح .. كنت سعيدة إلى درجة الاستسلام .. لم أفق إلا على صوت زوجي الذي أسرع بعد أن نادته أمي .

- حمدا الله على سلامتك .
فتحت عيني بصعوبة لأقرأ فرح العمر الذي عاد .. أخذ يدي و ضغط عليها فأحسست حنان الدنيا و أمل المستقبل .. قاومت المخدر و الفرح و قلت له .
- هل ابنتي جميلة .. نسميها !!١ لم أستطع نطق اسمها لكن زوجي قال لي بدهشة .
- من قال لك أنك أنجبت بنتاً .. إنه ولد .. ولد جميل مثل والده .. إنه ولي العهد .. ماذا تريدين أن نسميه؟؟

أخذني الذهول .. لم أستطع التفكير .. لم أستطع الابتسام .. فقط غططت في النوم .. جبل عال من الأوهام انزاح عن كاهلي .. غططت في نوم لذيذ .. سمعت زوجي ينادي الممرضة بسرعة لترى ما بي .. و سمعتها تقول لهم .
- اتركوها ترتاح فتأثير المخدر لم يزل يجب أن تنام .. هي بحاجة فقط إلى النوم .. لا تخافوا .

ابتسم قلبي .. رأيتها في حلمي مجدداً .. لكنها هذه المرة ترفل فرحاً و بيدها وردة أعطتني إياها و هي تبتسم .. و ابتسمت بدوري .. أردت أن أعتذر منها .. فقد حملت نفسي أوهاما تافهة طرحت عليها ثوباً منها صورت لنفسي أحوالاً لا دخل لها فيها لكني أقحمتها و اعتبرتها المسؤولة .

« صديقتي سامحيني .. تعالي إليَّ .. هاتي يدك .. » لكنها ابتعدت .. ابتعدت و هي تلوح لي .. أردت اللحاق بها .. لم أستطع .. قدماي مسمرتان في الأرض .. رفعت يداي و لوحت لها .. غابت في سماء صافية فتحت عيني مجددا .. بروح جديدة .. رأيت الجميع حولي يبتسمون .. ينتظرون .

ابتسمت .. طلبت رؤية طفلي .. احتضنته و نسيت عذاب الأيام كلها و رأيت أمل المستقبل في عينيه .